

في ظلال السيرة

لابن هشام

الجزء الأول

تلخيص عصري لكتاب السيرة الخالد وعمدة مراجعها
المعروف بسيرة ابن هشام (محمد بن عبد الملك بن هشام)

محمد لبيب البوهي

١٩٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن تعلم تفسير القرآن وتعليمه للأهل والعشيرة من أوجب الواجبات على كل مسلم ، كما أن هذا الواجب ينبغي أن يسير جنباً إلى جنب مع واجب آخر هو الإلمام الكامل بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم لأن سيرته العطرة هي التطبيق العملي للقرآن ، فمتى علم المسلم تفسير القرآن وزاد على ذلك دراسة السيرة كان ذلك حظه العظيم فى دنياه وآخرته

على أنه لايسيغ لنا ولايجمل بنا أن نجعل الأمر فى دراسة السيرة قاصراً على أن نلتقط من هنا ومن هناك صوراً عابرة من سيرة الرسول ، بل لابد من دراسة مركزة للحياة المثالية التى عاشها وأساليبه المختلفة فى مواجهة الظروف والأحداث ومعاملة الناس .

ولقد صدرت فى السيرة كتب متنوعة المقاصد والاتجاهات وأكثرها رغم ضخامته جاء خلوا من الروحانية فلا يحس القارىء المؤمن نشوة الروح التى تهب من نفحات هذه السيرة العطرة ، ومنها ما يكاد يكون تحليلا علمياً أو منطقياً محاكياً لأساليب كتاب الغرب والمستشرقين فى كتابة تراجم العظماء .

ولكن الأمر جد مختلف بالقياس إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهناك أمنية تجيش بصدر كل مؤمن راغب في الإلمام بسيرة نبيه العظيم أن يعكف على المجلدات الضخمة التي يحويها أعظم كتب السيرة على الإطلاق وعمدة مراجعها قديماً وحديثاً وهو الكتاب المعروف باسم سيرة ابن هشام (محمد بن عبد الملك بن هشام) والذي يعتبر المنبع الأول والمعين الصافي لجميع من كتبوا في السيرة أو حولها من قريب أو بعيد على الإطلاق وهو كتاب ضخم تشع كلماته إشعاعاً روحانياً لطيفاً يجعل مجلدات ذلك المحيط الكبير كنز الراغبين في علم السيرة على مرور الزمان .

غير أن هذه الأمنية العظيمة لايتسع لها وقت الكثيرين في هذه الأيام وقد لايؤتى الجلد لانفوذ إلى جواهرها من بين حواشيها المطولة ورواياتها المتكررة والإضافات الكثيرة .

لذلك توجهت إلى الله تعالى بقلب مفعم بالرجاء ملتمساً المعونة في إعادة عرض هذا الكنز العظيم عرضاً عصرياً سهلا مبسطاً لايذهب بالجوهر بل يقدمه خالصاً سائغاً على النسق الذي سرنا عليه بفضل الله وتوفيقه في تلخيص وعرض تفسير القرآن للإمام العظيم ابن كثير .

فاذا تابع القارىء الكريم تفسير ابن كثير ثم قرن إلى ذلك دراسة السيرة لابن هشام كان ذلك بفضل الله دراسة « للكتاب والسنة » دراسة سهلة .

والله تعالى ولى التوفيق ونسأله سبحانه العون والسداد .

قصة زمـزم

هذه نبذة لابد منها قبل الدخول فى السيرة الشريفة لذكر بعض الأماكن وبعض أجداد آل النبى قبل الإسلام .

حفر زمزم :

روى ابن إسحاق عن عبد المطلب بن هاشم أنه قال :

إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال : احفر طيبة (صفة لبئر زمزم) قال عبد المطلب قلت : وما طيبة ؟ قال : ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه ، فجاءنى فقال : احفر برة ، قال : فقلت وما برة ؟ قال ثم ذهب عنى ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه . فجاءنى فقال : احفر المضنونة . قال : فقلت وما المضنونة ؟ قال : ثم ذهب عنى فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه . فجاءنى فقال : احفر زمزم .

قال : قلت : وما زمزم ؟

قال لاتنزف أبدا ولاتذم (أى لايفرغ ماؤها أبدا) تسقى الحجيج الأعظم ، وهى بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل .

* * *

فلما تبين عبد المطلب وصفها ، ودل على موضعها ، وعرف أن الأمر صدق ، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، ولم يكن له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها ، فلما بدت لعبد المطلب حجارة البئر صاح مكبراً فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا :

ياعبد المطلب : إنها بئر أبينا اسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم ، وأعطيته من بينكم .

فقالوا له :

فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه .

قالوا : كاهنة بني سعد هذيم ؟

قال : نعم

قال : وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب ومعه نفر، والأرض إذ ذاك مفاوز فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه ، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش ، فأبوا عليهم وقالوا إنا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه ، قال ماذا ترون ؟

قالوا ما رأينا إلا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت .

قال : فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلا واحداً ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعاً :

قالوا : نعم ما أمرت به :

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا أنفسنا بأيدينا هكذا للموت . لانضرب فى الأرض ولانبتغى لأنفسنا لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ارتحلوا ، فارتحلوا ، حتى إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلم إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واسقوا فجاءوا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب ، والله لانخاصمك فى زمزم أبداً ، إن الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها .

* * *

قال ابن إسحاق فى صدد معرفة عبد المطلب لمكان زمزم أنه لما قيل له فى الرؤيا إنها عند قرية النمل قال واين هى؟ قيل له حيث ينقر الغراب غدا .

فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين المعروف أحدهما باسم إساف والوثن الآخر المعروف باسم نائلة ، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها . فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر ، فقامت إليه قريش حين رأوا منه ذلك فقالوا : والله لانتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما : فقال عبد المطلب لابنه الحارث : ذد عنى حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به ، فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له الماء ، فكبر وعرف أنه قد صدق ، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب : وهما الغزالان اللذان دفنتهما جرهم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافاً وأدراعاً .

فطلبت إليه قريش أن يشركها فى هذا الكنز .

فاقترح أن يقترعوا عليها بالقداح .

قالوا وكيف تصنع ؟

قال أجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج له قدحاه على شىء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شىء له .

فجعلوا قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش ثم أعطوا تلك القداح إلى صاحبها المدرب على الضرب بها .

وكان الضرب بالقداح يحدث عند صنم هبل الذى كان فى جوف الكعبة ، وهو أعظم أصنامهم .

وقام عبد المطلب يدعو الله عزوجل .

فضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة .

وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب ، وتخلف قدحا قريش .

فجعل عبد المطلب من ذهب الأسياف بعد أن صهرها باباً للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب .

* * *

فكان أول ذهب حليت به الكعبة فيما يزعمون .

* * *

ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج .

قصة الفيل

بنى أبرهة كنيسته بصنعاء وأراد أن يكون حج العرب إليها وكان أبرهة قد سخر أهل اليمن فى بناء كنيسته تلك وقيل إنه نقل إليها أحجار قصر بلقيس المموهة بالذهب .

فلما أتم أبرهة ذلك كتب إلى النجاشى ملك الحبشة يقول : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب .

ولما غضب العرب لذلك خرج رجل منهم حتى أتى هذا البناء الذى بناه أبرهة فأحدث فيه .

فعلم بذلك أبرهة فقال من صنع هذا ؟ فقيل له : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما علم أنك تريد أن تصرف إليها حج العرب ففعل هذا ليعلمك أنها ليست بأهل للحج ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا منه ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام .

* * *

وتصدى أقوام من العرب فى جهات شتى لأبرهة فهزمهم حتى إذا كان قرب مكة بعث حناطة الحميرى إليها وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ثم قل له : إن الملك يقول لك : إنى لم آت لحربكم « إنما جئت لهدم هذا البيت فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربى فأتنى به . »

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم .

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة .

فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم عليه السلام — فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فقال له حناطة : فانطلق معى إليه فانه قد أمرنى أن آتيه بك .

فانطلق عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر .

قال ابن اسحاق :

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه قل له : ماحاجتك ؟ .

فقال له ذلك الترجمان .

فقال حاجتى أن يرد على الملك مئتى بعير أصابها لى .

فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت منك حين كلمتني ، أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لاتكلمني فيه . ؟

قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه .

قال أبرهة ماكان ليمتنع مني .

قال عبد المطلب أنت وذاك .

* * *

وكان فيما يزعم بعض أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة سيد من سادات بني خويلد فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة . على أن يرجع عنهم ولايهدم البيت فأبى عليهم . والله أعلم أكان ذلك أم لا .

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي اصاب له .

* * *

فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الجيش .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدراً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدالك

* * *

قال ابن إسحاق :

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

* * *

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وعبى جيشه وكان اسم الفيل محمود ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن .

فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمى حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال :

ابرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت فإنك فى بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه .

فبرك الفيل .

وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى فضربوا فى رأسه بالطبرزين (آلة حديدية تشبه الفأس)

ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجم لهم فى مراقه فبزغوه بها (ضربوه بالعصا فى موضع حساس من جسده حتى أدموه) ليقوم فأبى .

* * *

فوجهوه راجعاً إلى اليمن .

فقام يهرول .

ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك .

ووجهوه إلى مكة فبرك .

فأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان (نوعان من الطيور فى حجم العصفور) مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس ، لاتصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن .

فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته .

أين المفر والإله الطالب .

والأشرم المغلوب ليس الغالب .

* * *

وروى ابن إسحاق أن نفيل قال فى هذه المناسبة :

ألا حييت عنا ياردينا (امرأة من نساء العرب)

نعمناكم مع الإصباح عينا .

ردينة لو رأيت ولاتريه .

لدى جنب المحصب ما رأينا .

إذا لعذرتني وحمدت أمري ،

ولم تأسى على مافات بينا .

حمدت الله إذ أبصرت طيراً .

وخفت حجارة تلقى علينا .

وكل القوم يسأل عن نفيل .

كأن علي للحبشان دينا .

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم تسقط أنامله ، أنملة أنملة ، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مادة قيح ودم ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر .

فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن اسحاق :

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ، مارد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال الله تبارك وتعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

وقال تعالى : .

(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ») .

قال ابن هشام :

الأبابيل : الجماعات وأما سجيل فقد ذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هما سنج وجل يعنى بالسنج الحجر ، والجل الطين . يعنى الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين .

والعصف ، ورق الزرع الذى لم يقصب ، وواحدته عصفة .

قال ابن هشام :

وإيلاف قريش إيلافهم الخروج إلى الشام فى تجارتهم ، وكانت لهم خرجتان : خرجة فى الشتاء ، وخرجة فى الصيف .

* * *

بعد حادثة الفيل

قال ابن اسحاق :

فلما رد الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم ما أصابهم به من النقمة أعظمت العرب قريشا ، وقالوا : هم أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم ، فقالوا فى ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم .

قال بعض شعرائهم :

تنكلوا عن بطن مكة إنها　　كانت قديما لايرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى　　ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم　　ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم　　والله من فوق العباد يقيمها

* * *

وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة فى شأن الفيل .

إن آيات ربنا ثاقبات　　لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل　　مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم　　بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى　　ظل يحبو كأنه معقور
حوله من ملوك كندة أبطال　　ملاويث فى الحروب صقور
خلفوه ثم ابذعروا جميعاً　　كلهم عظم ساقه مكسور

* * *

قصة بعض أصنام العرب

قال ابن اسحاق :

ويزعمون أن أول ماكانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل ، أنه كان لايظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه ، فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة ، وأعجبهم ، حتى خلف الخلوف (أى تتابع الزمان) ونسوا ماكانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ماكانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا . قالوا « لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » فيوحدونه بالتلبية ، ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده .

يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً من خلقي .

* * *

وقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها ، قص الله تبارك وتعالى خبرها على رسول الله فقال :

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) .

هبل .. وإساف .. ونائله :

وهي من الأصنام المشهورة لدى قريش فكان هبل في جوف الكعبة واتخذوا أسافا ونائله على موضع زمزم ينحرون عندهما .

قال ابن اسحاق :

وكان أساف ونائلة رجلا وامرأة من جرهم — هو أساف بن بغي ، ونائلة بنت ديك فوقع إساف على نائلة في الكعبة ، فمسخهما الله حجرين

* * *

قال ابن اسحاق :

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً ، تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آخر ما يصنع حين

يتوجه إلى سفره ، وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالتوحيد قالت قريش أجعلت الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب .

* * *

الطـــواغيت :

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، وتهدى لها كما تهدى للكعبة ، وتطوف بها كطوافها بها . وتنحر عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها ، لأنها كانت قد عرفت أنها بيت ابراهيم الخليل ومسجده . فكانت لقريش وبني كنانة « العزّى » بموقع عن يمين المسافر من مكة إلى العراق .

وكان سدنتها وحجابها . . بنو شيبان .

* * *

وكانت اللات لثقيف بالطائف وسدنتها بنو معتب من ثقيف وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب .

وقال الكميت الشاعر في شأن مناة :

وقد آلت قبائل لاتولى　　　مناة ظهورها متحرفينا

* * *

وكان ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ، ومن كان ببلادهم من العرب ويروى فى شأن ذى الخلصة أن رجلا كان أبوه قد قتل فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ينهيه عن ذلك ، فقال الرجل :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا
مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

* * *

كانت هناك أصنام وطواغيت أخرى كثيرة ذكرنا أهمها وأسماء سدنتها والسدنة هم الحجاب .

* * *

من تقاليد الجاهلية

البحيرة والسائبة والوصيلة :

قال ابن اسحاق :

فأما البحيرة فهى بنت السائبة ، والسائبة : الناقة إذا تابعت (ولدت) عشر إناث ليس بينهن ذكر ، سيبت فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف فما نتجت بعد ذلك من

أنثى شقت أذنها ، ثم خلى سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها .

فهذه هى البحيرة بنت السائبة .

* * *

والوصيلة :

الشاة إذا تأمت (جاءت بتوأم أى اثنين فى بطن واحد) عشر إناث متتابعات فى خمسة أبطن ، ليس بينهن ذكر ، قالوا قد وصلت ، جعلت وصيلة فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم ، إلا أن يموت منها شيء فيشتركوا فى أكله ذكورهم وأناثهم .

والحامى :

الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر ، حمى ظهره فلم يركب ولم يجز وبره ، وخلى فى إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك .

فلما بعث الله تبارك وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم أنزل عليه :

(مَاجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

وأنزل تعالى :

(وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِم وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) .

وأنزل تعالى :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ) .

* * *

أولاد عبد المطلب بن هاشم

قال ابن هشام :

فولد عبد المطلب بن هاشم عشرة نفر وست نسوة : العباس وحمزة ، وعبد الله ، وأبا طالب — واسمه عبد مناف — والزبير والحارث وحجلا والمقوم وضرارا وأبا لهب (اسمه عبد العزى وأطلق عليه هذا الوصف لشدة احمرار وجهه) وصفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأميمة وأروى وبرة .

* * *

فولد عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

* * *

قال ابن اسحاق :

وكان عبد المطلب بن هاشم – فيما يزعمون والله أعلم – قد نذر حين لقى من قريش مالقى عند حفر زمزم ، لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه : لينحرن أحدهم لله عند الكعبة ، فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ! قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم ائتونى : ففعلوا ثم أتوه فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة وكان هبل على بئر فى جوف الكعبة وكانت تلك البئر هى التى يجمع فيها ما يهدى للكعبة .

طريقة الاقتراع بالقداح :

وكان عند هبل قداح سبعة ، قدح مكتوب فيه « نعم » للأمر إذا أرادوه وقدح فيه «لا» إن خرج ذلك القدح لم يفعلوا الأمر : وقدح فيه « منكم » وقدح فيه « ملصق » وقدح فيه « من غيركم » وقدح فيه « المياه » إذا أرادوا أن يحفروا للماء .

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا فى نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم وجزور ، فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : ياإلاهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح اضرب فإن خرج عليه « منكم » كان خالص النسب وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم

لانسب له ولا حلف وإن خرج فيه شيء مما سوى هذا مما يعملون به مثل « نعم » أطاعوا وإن خرج « لا » أخروه عاماً حتى يأتوه به مرة أخرى .

ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح .

* * *

فقال عبد المطلب لصاحب القداح :

اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذى نذر فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه ، كان هو والزبير وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عائذ .

قال ابن اسحاق :

وكان عبد الله — فيما يزعمون — أحب ولد عبد المطلب إليه وهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أخذ صاحب القداح خرج القدح على عبد الله فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه فقامت إليه قريش من أنديتها ، فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال أذبحه .

فقالت له قريش وبنوه :

والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه ؛ لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا ؟

* * *

وقال له المغيرة بن عبد الله (وكان عبد الله ابن أخت القوم) : والله لاتذبحه أبدا حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه ؛ وقالت له قريش وبنوه : لاتفعل وانطلق به إلى الحجاز ؛ فإن به عرافة لها تابع فسلها ثم أنت على رأس أمرك إن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته .

* * *

فانطلقوا حتى قدموا المدينة فوجدوها — فيما يزعمون — بخيبر فركبوا حتى جاءوها فسألوها وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه وما أراد به ونذره فيه .

فقالت لهم :

ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله فرجعوا من عندها فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم ؟

قالوا : عشر من الإبل (وكانت كذلك) .

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا

من الإبل حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم .

* * *

فخرجوا حتى قدموا مكة فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل وعبد المطلب قائم عند هبل يدعو الله عزوجل ، ثم خرجوا فخرج القدح على عبد الله .

فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين .

وقام عبد المطلب يدعو الله عزوجل .

ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .

فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثلاثين .

وقام عبد المطلب يدعو الله .

ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين . وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .

وهكذا ظلوا يفعلون والقدح يخرج فى كل مرة على عبد الله وهم يزيدونها عشرا عشرا ، حتى بلغت عدد الإبل مائة .

وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل .

فقالت قريش ومن حضر : قد انتهى رضا وبك يا عبد المطلب ؛ فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ؛ فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ؛ وقام عبد المطلب يدعو الله . فخرج القدح على الإبل ؛ ثم عادوا الثالثة ؛ وعبد المطلب قائم يدعو الله ؛ فضربوا ؛ فخرج القدح على الإبل .

فنحرت المائة ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع .

قال ابن هشام : لا يصد إنسان ولا سبع .

قال ابن اسحاق :

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله ، فمر به — فيما يزعمون — على امرأة من بنى أسد (قيل إنها رقية بنت نوفل) ؛ وهى أخت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه :

أين تذهب يا عبد الله ؟

قال : مع أبى .

قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك وقع على الآن .

قال : أنا مع أبى ولا أستطيع خلافه ولا فراقه .

ويقال أنه أجابها شعراً :

أما الحرام فالحمام دونه   والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه   يحمى الكريم عرضه ودينه

فخرج عبد الله حتى أتى به وهب بن مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبا وشرفاً ؛ فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً .

* * *

زعموا . . أنه لما حملت آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم مر عبد الله يوماً بالمرأة التي عرضت عليه ما عرضت ؛ فقال لها :

مالك لاتعرضين على اليوم ماكنت عرضت على بالأمس ؟

قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ؛ فليس لى بك اليوم حاجة .

وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل ؛ وكان قد تنصر واتبع الكتب : أنه سيكون فى هذه الأمة نبى .

رواية عن آمنة بنت وهب :

قال ابن اسحاق :

ويزعمون — فيما يتحدث به الناس والله أعلم — أن آمنة بنت وهب كانت تحدث ؛ أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ؛ فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدا .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

وقد مات عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم رسول الله حامل به .

* * *

ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال ابن اسحاق :

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل :

روى عن حسان بن ثابت أنه قال :

والله إني لغلام يفعة ، ابن سبع سنين أو ثمان . أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة (حصن) بيثرب يامعشر يهود . حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له :

ويلك ، مالك ؟

قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به .

* * *

قال ابن اسحاق :

فلما وضعته أمه صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأته فانظر إليه ، فأتاه فنظر إليه . وحدثته بما رأت حين حملت به . وما قيل لها فيه . وما أمرت به أن تسميه .

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه . فدخل به الكعبة ، فقام يدعو الله ، ويشكر ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، والتمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم الرضعاء . فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يقال لها : حليمة ابنة أبي ذؤيب واسم أبيه الذي أرضعه صلى الله عليه وسلم : الحارث بن عبد العزى وإخوته من الرضاعة : عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة بنت الحارث .

وهم لحليمة بنت أبي ذؤيب .

* * *

قال ابن اسحاق :

وحدثني جهم بن أبي جهم عمن حدثه قال :

كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية . أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرضعته تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها ، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر . تلتمس الرضعاء قالت : وذلك في سنة شهباء . لم تبق لنا شيئاً . قالت : فخرجت على أتان لي قمراء (بياض يميل إلى القتومة) ومعنا شارف لنا (ناقة عجوز) والله ما تبض (ترشح) بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع : ما في ثديي ما يغنيه . وما في شارفنا ما يغديه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على إتاني تلك . فلقد أدمت بالركب (دلالة على بعد المسافة) حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء (وكان من

عادة أشراف العرب دفع أطفالهم إلى المراضع تخففاً عن أزواجهم) .
فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه .
إذا قيل لها إنه يتيم . وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي .
فكنا نقول : يتيم ؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نكرهه لذلك

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري . فلما أجمعنا
الانطلاق قلت لصاحبي : والله . إني لأكره أن أرجع من بين
صواحبي ولم آخذ رضيعاً . والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .
قال : لا عليك أن تفعلي . عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت فذهبت إليه فأخذته . وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد
غيره . فلما أخذته رجعت به إلى رحلي . فلما وضعته في حجري أقبل
عليه ثدياي بماشاء من لبن . فشرب حتى روى : وشرب معه أخوه
حتى روى : ثم ناما : وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجي إلى
شارفنا تلك (الناقة) . فاذا لبنها حافل . فحلب منها ما شرب وشربت
معه : حتى انتهينا رياً وشبعاً . فبتنا بخير ليلة . قالت : يقول صاحبي
حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة . لقد أخذت نسمة مباركة . قالت
فقلت : والله إني لأرجو ذلك . قالت ثم خرجنا وركبت أنا أتاني .
وحملته عليها معي : فوالله لقطعت بالركب : ما يقدر عليها شيء
من حمرهم . حتى إن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ويحك .

أربعى علينا . أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ . فأقول لهن : بلى والله . إنها لهى هى . فيقلن : والله إن لها لشأناً . قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم أسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب . فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن : وتروح غنمى شباعاً لبناً . فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته .

وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفرا (عظيم النمو) .

قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شىء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته فكلمنا أمه وقلت لها : لو تركت إبنى عندى حتى يغلظ فانى أخشى عليه وباء مكة .

قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا .

* * *

قصة الملكين وشق البطن :

قالت حليمة :

فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه فى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه .

قالت : فخرجت أنا وأبوه (تعني زوجها) نحوه فوجدناه قائماً منتقعا وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يابني قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو .

قالت : فرجعنا به إلى خبائنا . . وقال لي أبوه : يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت : ما أقدمك به يا ظئر (ذات العطف على ولد غيرها) وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟

قالت : فقلت : قد بلغ الله بابني وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه ؛ فأديته إليك كما تحبين .

قالت : ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك .

قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها .

قالت أفتخوفت عليه الشيطان .

قالت حليمة : نعم .

كلا : والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لابني لشأناً أفلا أخبرك خبره . ؟

قالت حليمة : بلى .

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط

كان أخف على ولاأيسر منه ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء دعيه عنك وانطلقي راشدة .

* * *

حديث النبي عن هذه القصة :

فى رواية ابن اسحاق :

أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له يارسول الله : أخبرنا عن نفسك ؟

قال نعم : أنا دعوة أبي ابراهيم وبشرى أخي عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام واسترضعت فى بني سعد بن بكر فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجاً ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم .

ثم قال زنه بمئة .

فوزنني بهم فوزنتهم .

ثم قال زنه بألف من أمته .

فوزنني بهم فوزنتهم .

فقال : دعه عنك فوالله لووزنته بأمته لوزنها .

* * *

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من نبي إلا وقد رعى الغنم .

قيل : وأنت يا رسول الله ؟

قال : وأنا .

* * *

وزعم الناس فيما يتحدثون والله أعلم : أن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها فى الناس وهى مقبلة به نحو أهله فالتمسته فلم تجده فأتت عبد المطلب فقالت له : إنى قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلنى فوالله ما أدرى أين هو .

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ؟

فيزعمون أنه وجده ورقة بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة .

فأخذه عبد المطلب . فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوذه ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة .

* * *

وفى رواية لابن اسحاق قال : وحدثنى بعض أهل العلم :

أن مما هاج أمه السعدية على رده إلى أمه مما سبق تفصيله ، أن نفراً من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألوها عنه ثم قالوا لها :

لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا فان هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره فزعم الذى حدثنى أنها لم تكد تنفلت به منهم .

* * *

النبى فى طفولته

قال ابن اسحاق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ، وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه ينبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته فلما بلغ رسول الله ست سنين ، توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء . بين مكة والمدينة . وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم فماتت وهى راجعة به إلى مكة :

* * *

وروى ابن اسحاق عن إكرام عبد المطلب للنبي فى طفولته قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة . فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم . لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له : قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم :

دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا .

ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

وفاة جد النبى

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب ابن هاشم وذلك بعد الفيل بثمانى سنين ورسول الله ابن ثمانى سنين .

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن سعيد بن المسيب :

أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ست نسوة : صفية . وبرة . وعاتكة . وأم حكيم البيضاء . وأميمة . وأروى .

فقال لهن : ابكين على حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت فكان مما قالت صفية بنت عبد المطلب تبكى أباها :

أرقت لصوت نائحة بليل . على رجل بقارعة الصعيد
ففاضت عند ذلكم دموعى على خدى كمنحدر الفريد[1]
على رجل كريم غير وغل[2] له الفضل المبين على العبيد
على الفياض شيبة ذى المعالى أبيك الخير وارث كل جود
صدوق فى المواطن غير نكس ولا شخت المقام ولا سنيد[3]
طويل الباع أروع شيظمى[4] مطاع فى عشيرته حميد

(١) الدر (٢) الساقط المروءة .
(٣) سنيد . . الضعيف . . الشخت يعنى الهازل . (٤) ضخم الجسم .

وفيع البيت أبلج ذى فضول وغيث الناس فى الزمن الحرود

. . . .

* * *

فلو خلد امرؤ لقديم مجد ولكن لا سبيل إلى الخلود
لكان مخلدا أخرى الليالى بفضل المجد والحسب التليد

* * *

وكان مما قالت برة بنت عبد المطلب تبكى أباها :

أعينى جودا بدمع درر على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد وارى الزناد جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذى المكرمات وذى المجد والعز والمفتخر

* * *

وكان مما قالت عاتكة بنت عبد المطلب تبكى أباها :

أعينى جودا ولا تبخلا بدمعكما بعد نوم النيام
على شيبة الحمد وارى الزناد وذى مصدق بعد ثبت المقام
وسيف لدى الحرب صمصامة ومردى المخاصم عند الخصام

* * *

وكان مما قالت أم حكيم :

ألا يا عين ويحك اسعفينى بدمع من دموع هاطلات
وبكى خير من ركب المطايا أباك الخير تيار الفرات
عقيل بنى كنانة والمرجى إذا ما الدهر أقبل بالهنات

* * *

وذهبت كل واحدة تبكى أباها شعراً .

قال ابن إسحاق :

فزعم لى محمد بن سعيد بن المسيب أن عبد المطلب أشار برأسه وقد اعتقل لسانه أن هكذا فابكينني .

فلما هلك عبد المطلب بن هاشم ، ولى زمزم والسقاية عليها بعده العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ من أحدث إخوته سنا ، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده . فأقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما مضى من ولايته .

* * *

النبى والراهب بحيرى

قال ابن اسحاق :

وكان أبو طالب هو الذى يلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده فكان إليه ومعه .

وقد حدث أن رجلا من لهب — كان عائفا (شديد الفراسة) فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم . قال : فأتى به أبو طالب وهو غلام ، مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شغله عنه شىء ؛ فلما فرغ سأل عن الغلام وقال ، على به ؛ فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ؛

فجعل يقول : ويلكم ! ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا ؛ فوالله ليكونن له شأن .

* * *

ثم أن أبا طالب خرج فى ركب تاجراً إلى الشام ؛ فلما تهيأ للرحيل وأجمع على المسير صب به (رغب إليه) رسول الله — فيما يزعمون — ق له أبو طالب . وقال : والله لأخرجن به معى . ولا يفارقنى أفارقه أبدا . أو كما قال .

فخرج به معه فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ؛ وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له . وكان إليه علم النصرانية . ولم يزل فى تلك الصومعة منذ صار راهبا . إليه يصير علمهم عن كتاب — فيما يزعمون — يتوارثونه كابراً عن كابر . فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ؛ وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم . حتى كان ذلك العام . فلما نزلوا به قريبا من صومعته صنع لهم طعاما كثيراً وذلك عن شيء رآه وهو فى صومعته يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صومعته . فى الركب حين أقبلوا ؛ وغمامة تظله من بين القوم . ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه . فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة . وتهصرت (مالت) أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها ؛ فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته . ثم أرسل إليهم . فقال : إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش . فأنا أحب أن تحضروا كلكم . صغيركم وكبيركم . وعبدكم وحركم .

فقال له رجل منهم .

والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم ؛ فما كنت تصنع بنا وقد كنا نمر بك كثيرا ؛ فما شأنك اليوم ؟

فقال له بحيرى : صدقت : قد كان ما تقول ؛ ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم ؛

* * *

النبي في وليمة بحيرى :

فاجتمعوا إليه . وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذهاب لحداثة سنة ، في رحال القوم تحت الشجرة ؛

فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى ؛

قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام ؛ وهو أحدث القوم سناً فتخلف في رحالهم ؛

فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم :

واللات والعزى ، إن كان للوم بنا أن يتخلف ابن عبد الله ابن عبد المطلب عن طعام من بيننا ؛

ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

* * *

بحيرى يسأل النبى :

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى فقال له : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما (أى باللات والعزى) .

فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له :

لا تسألنى باللات والعزى ، فوالله ما ابغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى :

فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه .

فقال له : سلنى عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .

قال ابن هشام ، وكان مثل أثر المحجم .

قال ابن اسحاق :

فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب ، فقال له :

ما هذا الغلام منك ؟

قال : ابني ؟

قال بحيرى : ما هو بابنك ؛ وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً ؛

قال : فانه ابن أخى ؛

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى به ؛

قال : صدقت ؛ فارجع بابن أخيك إلى بلده ؛ واحذر عليه يهود ؛ فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ؛ فأسرع به إلى بلاده .

* * *

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام ؛ فزعموا فيما روى الناس : أن زريرا وتماماً ودريساً ؛ وهم نفر من أهل الكتاب ، قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رآه بحيرى فى ذلك السفر ؛ الذى كان فيه مع عمه أبى طالب ؛ فأرادوا قتله فردهم عنه بحيرى ، وذكرهم بالله وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم ؛ وصدقوه بما قال فتركوه وانصرفوا عنه .

* * *

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته ، حتى بلغ أن كان رجلا هو أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما ، حتى ما أسموه فى قومه الأمين ، إلا لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

* * *

فى رعاية الله :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما ذكر لى — يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته ، أنه قال :

لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى ، وأخذ إزاره فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر ، إذ لكمنى لاكم لم أره لكمة وجيعة ، ثم قال اشدد عليك إزارك .

قال صلى الله عليه وسلم : فأخذته وشددته على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى .

فى حروب الفجار

من رواية لابن هشام :

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش ، وكان الذى هاجها أن عروة الرحال أجار قافلة تحمل تجارة .

فقال له البراض بن قيس (من كنانة): أتجيرها على كنانة ... ؟

فقال عروة : نعم وعلى الخلق كله .

فخرج عروة الرحال مع القافلة وخرج البراض خلفه يطلب غفلته حتى إذا كان (بجهة ذى طلال) بعالية نجد غفل عروة ، فوثب عليه البراض فقتله فى الشهر الحرام فلذلك سمى الفجار .

وفى ذلك قال البراض :

وداهية تهم الناس قبلى   شددت لها بنى بكر ضلوعى
هدمت بها بيوت بنى كلاب   وأرضعت الموالى بالضروع
رفعت له بذى طلال كفى   فخر يميد كالجذع الصريع

* * *

قال ابن هشام :

فأتى آت قريشاً فقال :

إن البراض قد قتل عروة ، وهم فى الشهر الحرام بعكاظ ، فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم ، ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل ، ودخلوا الحرم .

فأمسكت عنهم هوازن .

ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، والقوم متساندون على كل قبيل من قريش وكنانة رئيس منهم ، وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم .

* * *

وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم ، أخرجه أعمامه معهم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامى ؛ أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها .

* * *

زواج النبى صلى الله عليه وسلم

قال ابن هشام :

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة . تزوج خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب فيما حدثنى غير واحد من أهل العلم .

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، بشىء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها ، من صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من

التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج فى مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان (قيل إن اسم هذا الراهب نسطور) ، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له :

من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟

قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم .

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى (أى الذى نزل تحتها الآن) .

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشترى ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة — فيما يزعمون — إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس — وهو يسير على بعيره .

فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به ، فأضعف أو قريباً .

وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه . وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له — فيما يزعمون — يابن عم إنى قد

وغبت فيك لقرابتك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك . ثم عرضت عليه نفسها .

وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالا . كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه

* * *

فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه عمه حمزه بن عبد المطلب رحمه الله ، حتى دخل على خويلد ابن أسد فخطبها إليه فتزوجها .

وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها . ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضى الله عنها .

فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم والقاسم وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ، والطاهر والطيب وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة :

قال ابن إسحق :

فأما القاسم ، والطيب ، والطاهر ، فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام : فأسلمن وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم .

وأم إبراهيم : مارية سرية النبى صلى الله عليه وسلم التى أهداها إليه المقوقس .

* * *

حديث خديجة عن النبى مع قومها :

قال ابن إسحاق :

وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ، وكان ابن عمها ، وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس ، ماذكر لها غلامها ، وكان ميسرة من قول الراهب ، وماكان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه .

فقال ورقة :

لئن كان هذا حقاً يا خديجة ، إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه .

* * *

وروى أن ورقة جعل يستبطئ بعد ذلك أمر بعث النبى ، وكان مما روى عنه قوله شعراً :

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لهم طالما بعث النشيجا

ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا

ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا

بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا

بأن محمداً سيسود فينا ... ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا

فيلقى من يحاربه خسارا ويلقى من يسالمه فلوجا
فياليتنى إذا ما كان ذاكم شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجا فى الذى كرهت قريش ولو عجت بمكتها عجيجا
فإن يبقوا وأبق تكن أمور يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى من الأقدار متلفة حروجا

* * *

اختلاف قريش فى بناء الكعبة وحكم النبى صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق :

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة الذى كان فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وجد عنده الكنز يسمى دويك ، مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك :

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ميناء جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها (تسقيف الكعبة) وكان بمكة نجار قبطى فتهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت هنالك حية تخرج من بئر الكعبة التى كان يطرح فيها ما يهدى للكعبة كل يوم

فتشرق الحية على جدار الكعبة (تنطرح) وكانت مما يهابون وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت وكشت وفتحت فاها ، لذلك كانوا يهابونها .

فبينا هى ذات يوم تشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها .

فقالت قريش :

إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما اجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها ، قام أبو وهب بن عمرو فتناول من الكعبة حجراً ، فقال :

يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس .

* * *

تقسيم الأعمال بين قريش :

ثم إن قريشاً جزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن العزى .

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ؛

ثم هدم من ناحية الركنين . فتربص الناس تلك الليلة . وقالوا : ننظر فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت . وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله صنعنا . فهدمنا .

* * *

وأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله . فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها بعضا ؛

قال ابن إسحاق : فحدثنى بعض من يروى الحديث :

أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما فلما تحرك الحجر تنقضت (اهتزت) مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

* * *

قال ابن إسحاق :

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تجاوزوا (تعصب كل لقبيلته) وتحالفوا وأعدوا العدة للقتال فقربت بنو

عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة وكانوا يسمون هذا العمل لعقة الدم .

فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا . ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد وتشاوروا وتناصفوا .

اقتراح بالتحكيم :

وزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة وكان يومئذ أسن قريش كلها قال : يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيما تفعلون فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد ...

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال : هلم إلى ثوبا ، فأتى به ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناصية من الثوب ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا ؛ حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه .

* * *

وكانت قريش تسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحى : الأمين فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا قال الزبير بن عبد المطلب :

فقمنا حاشدين إلى بناء لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه وليس على مسوينا ثياب

أعز به المليك بنى لؤى   فليس لأصله منهم ذهاب
فبوأنا المليك بذاك عزا   وعند الله يلتمس الثواب

* * *

الاحداث التى سبقت البعث

قال ابن إسحاق :

وكانت الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب زمانه .

أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى ، فعما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ؛ وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ؛

إذ كانت الشياطين لم تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم ، وكان الكاهن والكاهنة فى ذكر كثير من هذه العلامات ، لا تلقى العرب لذلك فيه بالا ، حتى بعثه الله تعالى ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها .

* * *

فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب مبعثه ؛ حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت

تقعد لاستراق السمع فيها ، منعوا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد .

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمد حين بعثه وهو يقص عليه خبر الجن إذ حجبوا عن السمع فعرفوا ما عرفوا ، وما أنكروا من ذلك حين رأوا ما رأوا :

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) .

إلى قوله تعالى :

(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا . وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) .

* * *

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها إنما منعت من السمع قبل ذلك لئلا يشكل الوحى بشىء من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه ، لوقوع الحجة وقطع الشبهة فآمنوا وصدقوا ثم :

(وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّاسَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وكان قول الجن « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » أنه كان الرجل من العرب من قريش وغيرهم إذا سافر فنزل بطن واد من الأرض ليبيت فيه قال : إنى أعوذ بعزيز هذا الوادى من الجن الليلة من شر ما فيه .

* * *

رمى الجن بالنجوم وفزع العرب :

كان حى ثقيف أول حى فزع للرمى بالنجوم ، وروى أنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية وكان أدهى العرب وأنكرها (أقومها) رأياً — فقالوا له : يا عمرو ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم ؟

قال : بلى ، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس فى معايشهم هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها وإن كانت نجوماً غيرها وهى ثابتة على حالها ، فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق .

* * *

حديث النبي عن رمى الجن بالنجوم :

قال ابن اسحق : وذكر محمد بن مسلم عن على بن الحسين عن عبد الله بن عباس عن نفر من الأنصار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : ماذا كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به ؟

قالوا : يا نبي الله ، كنا نقول حين رأيناها يرمى بها : مات ملك ، قام ملك ، ولد مولود ، مات مولود :

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى فى خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا فسبح من تحتهم ، فسبح لتسبيحهم من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيسبحوا ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟ فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم فيقولون ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟ فيقولون مثل ذلك حتى ينتهى إلى حملة العرش فيقال لهم : لم سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله فى خلقه كذا وكذا ، للأمر الذى كان ، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيتحدثوا به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف ، ثم يأتوا به الكهان من أهل الأرض فيحدثوهم به فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان ، فيصيبون بعضاً ويخطئون بعضاً ، ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التى يقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة .

* * *

رواية عن مصاحبة الشياطين لبعض الانس :

قال ابن إسحاق :

إن امرأة من بنى سهم ، يقال لها الغيطلة ، كانت كاهنة فى الجاهلية جاءها صاحبها ليلة من الليالى ، فانقض تحتها ثم قال : أدر ما أدر ، يوم عقر ونحر ، فقالت قريش حين بلغها ذلك : ما يريد ؟ ثم جاءها ليلة أخرى ، فانقض تحتها ، ثم قال : شعوب ما شعوب ، تصرع فيه كعب لجنوب ، فلما بلغ ذلك قريشا قالوا : ماذا يريد ؟ إن هذا لأمر هو كائن . فانظروا ما هو ؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب فعرفوا أنه الذى جاء به إلى صاحبته .

* * *

قال ابن إسحاق :

إن جنبا : (بطن من اليمن) كان لهم كاهن فى الجاهلية فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر فى العرب : قالت له جنب : أنظر لنا فى أمر هذا الرجل .

واجتمعوا له فى أسفل جبله ، فنزل عليهم حين طلعت الشمس ، فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس له ، فرفع رأسه إلى السماء طويلا ، ثم جعل ينزو (يقفز) ثم قال : أيها الناس ، إن الله أكرم محمداً واصطفاه ، وطهر قلبه وحشاه ، ومكثه فيكم أيها الناس قليل ، ثم ذهب فى جبله راجعاً من حيث جاء .

وفى رواية عن ابن اسحاق أيضاً عن عبد الله بن كعب ، مولى عثمان بن عفان ، أنه حدث :

أن عمر بن الخطاب بينما هو جالس فى الناس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل رجل من العرب داخلا المسجد يريد عمر بن الخطاب فلما نظر إليه عمر رضى الله عنه قال : إن هذا الرجل لعلى شركه ما فارقه بعد ، أو لقد كان كاهناً فى الجاهلية فسلم عليه الرجل ثم جلس فقال له عمر رضى الله عنه : هل أسلمت ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين قال له فهل كنت كاهناً فى الجاهلية فقال الرجل سبحان الله يا أمير المؤمنين لقد خلت فى واستقبلتنى بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت ما وليت ، فقال عمر : اللهم غفرا ، قد كنا فى الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ، ونعتنق الأوثان ، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام ، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين لقد كنت كاهناً فى الجاهلية قال : فأخبرنى ما جاءك به صاحبك الجنى ؟ قال : جاء قبل الإسلام بشهر أو شيعه فقال ألم تر إلى الجن وإبلاسها . وإياسها فى دينها ، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها .

قال عبد الله بن كعب .

فقال عمر بن الخطاب عند ذلك يحدث الناس : والله إنى لعند ولن من أوثان الجاهلية فى نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلا ، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه إذ سمعت من جوف العجل

صوتاً ما سمعت صوتاً قط أنفذ منه ، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه ، يقول ياذريح أمر نجيح ، رجل يصيح يقول : لا إله إلا الله .

* * *

قال ابن هشام . وأنشد بعض أهل العلم .

عجبت للجن وإبلاسها   وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى   ما مؤمنوا الجن كأنجاسها

* * *

اليهود وبعث النبى صلى الله عليه وسلم

قال ابن اسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، هو ماكنا نسمع من رجال يهود ، كنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا .

وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ماكانوا يتوعدوننا ، فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة .

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

* * *

وتحدث سلمة بن سلامة من أصحاب بدر قال :

كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل ؛ فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشهل — قال سلمة — وأنا يومئذ من أحدث من فيه سنا ، على بردة لى ، مضطجع فيها بفناء أهلى — فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، قال : فقال ذلك لقوم أهل شرك ، أصحاب أوثان لايرون أن بعثاً كائن بعد الموت ؛ فقالوا له : ويحك يافلان ! أو ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم ؟

قال : نعم ، والذى يحلف به ، ولود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطينونه عليه ، وأن ينجو من تلك النار غداً .

فقالوا له : ويحك يا فلان ! فما آية ذلك ؟

قال . نبى مبعوث من نحو هذه البلاد . وأشار بيده إلى مكة واليمن .

فقالوا : ومتى نراه ؟

قال : فنظر إلى . وأنا من أحدثهم سنا . فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة :

فوالله ماذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو حي بين أظهرنا فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً .

قال سلمة : فقلنا للرجل . ويحك يافلان ، ألست الذى قلت لنا فى محمد ما قلت ! ؟

قال : بلى ولكن ليس به .

* * *

بحث قريش فى الاديان

قال ابن اسحاق :

واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم ؛ كانوا يعظمونه وينحرون له . ويعكفون عنده ، ويديرون به . وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة .

فخلص منهم أربعة نجيا . ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض .

قالوا : أجل .

وهم ورقة بن نوفل ؛ وعبد الله بن جحش . وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو فقال بعضهم لبعض :

تعلموا والله ما قومكم على شىء ! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لايسمع ولايبصر ولايضر ولاينفع ! يا قوم . التمسوا لأنفسكم ديناً ؛ فإنكم والله ما أنتم على شىء .

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

* * *

فأنت ترى من ذلك حيرة الناس وعدم اطمئنانهم إلى ما يعبدون فى انتظار الدين الحق الذى عنه يبحثون وإنك لتجد حيرة القوم فيما تذكره لنا رواية لأسماء بنت أبى بكر قالت :

لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يامعشر قريش . والذى نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى : ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به . ولكنى لا أعلمه . ثم يسجد على راحته .

قال ابن اسحاق :

وحدث أن ابنه سعيد بن عمرو بن نفيل وعمر بن الخطاب وهو ابن عمه قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال : نعم ؛ فانه يبعث أمة وحده .

ومن قول زيد بن عمرو في فراق دين قومه وما كان لقي منهم في ذلك .

أرباً واحداً أم ألف رب | أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً | كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها | ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا هبلا أدين وكان رباً | لنا في الدهر إذ حلمي يسير
ولكن أعبد الرحمن ربي | ليغفر ذنبي الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظوها | متى ما تحفظوها لاتبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان | وللكفار حامية سعير
وخزى في الحياة وإن يموتوا | يلاقوا ما تضيق به الصدور

* * *

ذكر النبى فى الانجيل

قال ابن اسحاق :

وقد كان ، فيما بلغني عما كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبت يحنس الحوارى لهم حين نسخ لهم الإنجيل ، عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

من أبغضنى فقد أبغض الرب . ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ماكانت لهم خطيئة ، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزوننى . وأيضاً للرب ، ولكن لابد من أن تتم الكلمة التى فى الناموس : أنهم أبغضونى مجاناً أى باطلا . فلو قد جاء المنحمنا هذا الذى يرسله إليكم من عند الرب . روح القدس هذا الذى من عند الرب خرج ، فهو شهيد على ، وأنتم أيضاً لأنكم قديماً كنتم معى ، فى هذا قلت لكم لكيما لاتشكوا :

« والمنحمنا بالسريانية : محمد . . واسمه بالرومانية : البرقليطس صلى الله عليه وسلم)

بعث النبى صلى الله عليه وسلم

قال ابن اسحاق :

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين بعثه الله رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيراً وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر له على من خالفه وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم فأدوا من ذلك ماكان عليهم من الحق فيه ، يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم :

(وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى) .

أى ثقل ما حملتكم من عهدى .

(قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) .

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له ونصره على من خالفه وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل الكتابين .

إبتداء الرسالة :

قال ابن اسحاق عن الزهرى بن عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها حدثته :

أن أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لايرى رسول الله رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح . قالت : وحبب الله تعالى إليه الخلوة فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده .

وفى رواية عن أهل العلم :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولاشجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله ، قال : فيلتفت رسول الله حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة .

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ويسمع ماشاء الله أن يمكث ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان .

عادة النبى فى التحنث :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور فى حراء كل سنة شهراً وكان ذلك مما تتحنث (تتبرر) به قريش فى الجاهلية ، وفى هذا الشهر من كل سنة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة ، قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ماشاء الله من ذلك . ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته . من السنة التى بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى . وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط (وعاء) من ديباج (حرير) فيه كتاب فقال :

اقرأ

قلت : ما أقرأ ؟

فغتنى (حبس نفسى) به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى .

فقال : اقرأ .

قلت : ما أقرأ ؟

فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت ، ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود إلى بمثل ما صنع بي ، فقال :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبي كتاباً فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول :

يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل .

قال : صلى الله عليه وسلم : فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل .

قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف مكانى ذلك ثم انصرف عنى .

وانصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فو الله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى .

ثم حدثتها بالذى رأيت .

فقالت : أبشر يابن عم وأثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

حديث ورقة بن نوفل :

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع .

فقال ورقة بن نوفل ؛ قدوس قدوس (أى مطهر مطهر) والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتينى ياخديجة لقد جاءه الناموس (إشارة إلى الوحى) الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل فلما قضى رسول الله جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع بدأ بالكعبة فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال :

يابن أخى ، أخبرنى بما رأيت وسمعت .

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبنه الناس ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ثم أدنى رأسه فقبل يافوخه .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

* * *

قال ابن اسحاق ، وحدثني اسماعيل بن أبي حكيم :

أنه حدث عن خديجة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

قال : نعم . قالت فإذا جاءك فأخبرنى به .

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة : يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى .

قالت : قم يابن عم فاجلس على فخذى اليسرى .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها .

قالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالت فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله جالس فى حجرها . ثم قالت له : هل تراه ؟

قال : لا .

قالت : يابن عم أثبت وأبشر فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان .

* * *

قال ابن اسحاق :

ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان بقول الله عزوجل :

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ..)

وقال تعالى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) .

وقال تعالى :

(حم والْكِتَابِ المُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) .

وقال تعالى :

(إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الجَمْعَانِ) .

وذلك ملتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين يوم بدر وقيل إن ذلك كان يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .

قال ابن اسحاق :

ثم تتام الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مؤمن بالله مصدق بما جاءه منه . قد قبله بقبوله ، وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم ، والنبوة أثقال ومؤنة ، لايحملها ولايستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله تعالى وتوفيقه ، لما يلقون من الناس وما يرد عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى :

فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله ، على مايلقى من قومه من الخلاف والأذى .

* * *

صلاة السيدة خديجة

وكان أول من آمن به صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة فشدت بذلك أزره بفضل الله فكان لايسمع شيئاً من القوم مما يكره إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها : تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس .

فكان جزاؤها من الله ما أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب ، لاصخب فيه ولانصب

قال ابن هشام : القصب : اللؤلؤ المجوف . وقال : وحدثني من أثق به :

أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اقرئ خديجة السلام من ربها فقال رسول الله : ياخديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك :

فقالت خديجة : الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

* * *

ثم قال ابن اسحاق :

ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من الزمن حتى شق ذلك عليه فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه فيها وهو الذى أكرمه بما أكرمه به ، ماودعه وما قلاه ، فقال تعالى :

(وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) .

يقول ما حرملك فتركك ، وما أبغضك من أحبك .

(ولَلآخِرةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى) .

أي ما عندى من مرجعك إلى ، خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا .

(وَلَسوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) .

من الفلاح فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . ووَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى . ووَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنَى) .

يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره ، ومنه عليه فى يتمه وعيلته وضلالته . واستنقاذه من ذلك كله برحمته .

* * *

كيف فرضت الصلاة

قال ابن إسحاق :

افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين . كل صلاة ، ثم إن الله تعالى أتمها فى الحضر أربعا ، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين ، وقال : إن الصلاة حين افترضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فهمز بعقبه فى ناحية الوادى ، فانفجرت منه عين ؛ فتوضأ جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ، ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضا رسول الله كما رأى جبريل

توضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به ، وصلى رسول الله بصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام .

* * *

فجاء رسول الله خديجة ، فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ ، ثم صلى بها رسول الله كما صلى به جبريل ، فصلت بصلاته .

تحديد أوقات الصلاة

قال ابن إسحاق فى رواية عن نافع بن جبير وكان نافع كثير الرواية عن ابن عباس قال :

لما افترضت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق . ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر ، ثم جاءه فصلى به الظهر من غد حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس . ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول . ثم صلى به الصبح مسفراً غير مشرق ثم قال : يا محمد ، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس .

* * *

على بن ابى طالب

قال ابن اسحاق :

ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه وصدقه بما جاءه من الله تعالى : على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، رضوان الله وسلامه عليه وهو يومئذ ابن عشر سنين .

وكان مما أنعم الله بهعلى علىّ بن أبى طالبرضى الله عنه أنه كان فى حجر رسول الله قبل الإسلام .

وروى ابن اسحاق القصة التالية قال :

كان من نعمة الله على على بن أبى طالب ، ومما صنع الله له ، وأراده به من الخير أن قريشا أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيالٍ كثير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ، وكان من أيسر بنى هاشم : ياعباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله ، آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس : نعم .

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب :

إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا ماشئتما

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا فضمه إليه

وأخذ العباس جعفرا فضمه إليـــه

فلم يزل علىّ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا ، فاتبعه على رضى الله عنه ، وآمن به وصدقه ، ولم يزل جعفر عند العباس حتّى أسلم واستغنى عنه .

* * *

وذكر بعض أهل العلم :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفياً عن أبيه أبى طالب ، ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ؛ فاذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا . ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

فقال : أى عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيم ،أو كما قال صلى الله عليه وسلم بعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم ، أحق من بذلت له النصيحة ؟ ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه ، أو كما قال ، فقال أبو طالب :

أى ابن أخى ، إنى لاأستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لايخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلىّ :

أى بنى ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

فقال : يا أبت ، آمنت بالله ورسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه واتبعته فزعموا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه .

* * *

زيد بن حارثة

قال ابن إسحاق :

ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل ، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب .

وكان قد جيء به وهو غلام بين رقيق من الشام لحكيم بن حزام ابن خويلد فدخلت عليه خديجة بنت خويلد ، وهى يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : اختارى ياعمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك . فاختارت زيداً فأخذته .

فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ، فاستوهبه منها ، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه .

وكان أبوه حارثة قد جزع جزعاً شديداً ، وبكى عليه حين فقده فقال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائل ... أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل
ويا ليت شعرى هل لك الدهر أوبة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزنى عليه وما وجل
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى على منيتى ... فكل امرئ فان وإن غره الأمل

* * *

ثم قدم عليه وهو عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله : إن شئت فأقم عندى وإن شئت فانطلق مع أبيك .

فقال : بل أقيم عندك .

فلم يزل عند رسول الله حتى بعثه الله فصدقه وأسلم ، وصلى معه ، فلما أنزل الله عز وجل « ادعوهم لآبائهم » قال :

أنا زيد بن حارثة .

* * *

أبو بكر الصديق

ثم أسلم بعد ذلك أبوبكر بن أبي قحافة ، واسمه عتيق وقيل أنه سمى بهذا الاسم لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد ، فنذرت أن تتصدق به للكعبة .

فلما أسلم أبوبكر ، رضى الله عنه ، أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ورسوله .

وكان أبو بكر رجلا مألفا (يألفه الناس) محبباً سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ؛ لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ، ويجلس إليه .

* * *

الذين اسلموا على يد أبى بكر

قال ابن اسحاق :

فأسلم بدعائه (دعاء أبي بكر) — فيما بلغني — عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاء

بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استجابوا له فأسلموا وصلوا ، وكان رسول الله يقول — فيما بلغني — مادعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة ، ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه .

* * *

ظهور الإسلام

قال ابن إسحاق :

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ، ثم إن الله عزوجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بماجاءه منه ، وأن يبادى الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ؛ وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين — فيما بلغنى — من مبعثه ، ثم قال الله تعالى له :

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) .

وقال تعالى :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ) .

* * *

الصلاة فى شعاب مكة سرا :

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم

نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم .

فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير (عظم الساق) فشجه ، فكان أول دم هريق في الإسلام .

* * *

فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه — فيما بلغني — حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ، ومضى ورسول الله على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء .

صناديد قريش عند أبي طالب :

فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم من شيء مما أنكروه عليه من فراقهم وعيبه لآلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه ، وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب ، عتبة وشيبة أبنا ربيعة بن عبد شمس ، وأبو سفيان بن حرب ، والأسود بن عبد المطلب ، وأبو جهل — واسمه عمرو — وكان يكنى أبا الحكم — والوليد بن المغيرة ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر والعاص بن وائل فقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا ،

فاما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه :

فقال لهم أبو طالب قولا رفيقاً ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه .

* * *

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يظهر دين الله ويدعوهم إليه ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثرت قريش ذكر رسول الله بينها فتدامروا (تغاضبوا) فيه ، وحض بعضهم بعضاً عليه ، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا له :

يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين :

ثم انصرفوا عنه :

فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خذلانه :

حديث أبى طالب الى رسول الله :

فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له :

يا بن أخى :

إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، للذى قالوا له ، فابق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فظن رسول الله

أنه قد بدا لعمه أن يخذله ويسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .

قال ابن اسحاق فقال رسول الله .

يا عم : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك ، ما تركته .

قال : ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : اذهب يابن أخى فقل ما أحببت ، فو الله لاأسلمك لشىء أبدا .

* * *

ثم إن قريشا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم فى ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له — فيما بلغنى — يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش ، وأجمله ، فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله فانما هو رجل برجل .

فقال : والله لبئس ما تسوموننى . أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى تقتلونه . ؟ هذا والله مالا يكون أبدا .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل .

والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا .

فقال له أبو طالب :

والله ما أنصفونى ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على ، فاصنع ما بدالك فحقب الأمر ، وحميت الحرب وتنابذ القوم ، وبادى بعضهم بعضا .

قريش وتعذيب المؤمنين

قال ابن إسحاق :

ثم إن قريشا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ومنع الله رسوله منهم بعمه أبى طالب ، وقد قام أبو طالب ، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون ، فى بنى هاشم وبنى المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه ، من منع رسول الله والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى مادعاهم إليه ، إلا ما كان من أبى لهب عدو الله الملعون .

فلما رأى أبو طالب من قومه ماسره فى جهدهم معه وحدبهم عليه ، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ، ويذكر فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم ، وليحدبوا معه على أمره فقال :

ذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر   فعبد مناف سرها وصميمها

وإن حصلت أشراف عبد منافها   ففى هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فان محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... إذا ماثنوا صعر الخدود نقيمها
ونحمي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذواء وإنما ... بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

* * *

مؤامرة الوليد بن المغيرة

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم وقال لهم : يامعشر قريش ، إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ؛ ولاتختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت ياعبد شمس ، فقل وأقم لنا رأيا نقول به .

قال : بل أنتم فقولوا .

قالوا : نقول كاهن .

قال : لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولاسجعه .

قالوا : فنقول مجنون .

قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولاوسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ماهو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول ساحر .

قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولاعقدهم .

قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

* * *

فتفرقوا عند ذلك ؛ فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ؛

فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة قوله :

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا

أى خصيما .

وهو الذى أيضا قال تعالى فى شأنه :

(سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) .

وأنزل الله تعالى فى النفر الذين كانوا يصنفون القول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ . فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن لقوا من الناس ، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها .

* * *

ثم حدث بعد ذلك أن أصاب القحط المدينة فذهب أهلها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا ذلك إليه ؛ فصعد رسول الله المنبر فاستسقى . فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه وجعل أهل الضواحى يشكون منه الغرق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اللهم حوالينا ولا علينا .

فانجاب السحاب عن المدينة فصار حواليها كالإكليل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره ؛ فقال له بعض أصحابه ؛ كأنك يا رسول الله أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال : أجل .

* * *

وكان ممن يصدون عن رسول الله عداوة قومه حكيم بن أمية ، ومن قوله فى صد قومه عن رسول الله .

هل قائل قولا هو الحق قاعد عليه وهل غضبان للرشد سامع

وهل سيد ترجو العشيرة نفعه لأقصى الموالى والأقارب جامع

تبرأت إلا وجه من يملك الصبا وأهجركم مادام مدل ونازع

وأسلم وجهى للأله ومنطقى ولو راعنى من الصديق روائع

* * *

من ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم

ثم قال ابن إسحاق

ثم إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله

صلى الله عليه وسلم مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

قال ابن إسحاق :

فحدثنى يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

قلت : ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟

قال : حضرتهم : وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، أو كما قالوا : فبيناهم فى ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لما مر بهم ثانية غمزوه بمثلها ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه أيضا : فوقف ثم قال :

أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذى بيده نفسى : لقد جئتكم بالذبح .

فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه عداوة ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا ؟

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه . ؟

فبينما هم فى ذلك الحديث طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون :

أنت الذى تقول كذا وكذا (لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم) فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

نعم : أنا الذى أقول ذلك .

فقام رجل منهم وأخذ بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه . وهو يبكى ويقول :

أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

ثم انصرفوا عنه .

• • •

وقال ابن هشام رواية عن بعض أهل العلم :

إن أشد مالقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لاحر ولا عبد ، فرجع

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله ، فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه.

(يا أَيُّها المُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) .

* * *

مع حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق : حدثنى رجل من أسلم ، كان واعية :

ان أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم انصرف عنه . فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحا قوسه راجعا من قنص له . وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة . وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم . وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة :

فلما مر بالطريق قالت له جارية .

يا أبا عمارة : لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم ابن هشام ؟ وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد :

* * *

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته . فخرج يسعى ولم يقف على أحد معدا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به .

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا فى القوم . فأقبل نحوه . حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة ثم قال :

أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت .

فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل .

فقال أبو جهل .

دعوا أبا عمارة . فانى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا .

وتم حمزة رضى الله عنه إسلامه ؛ وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

بعد اسلام حمزة :

فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

* * *

قصة عتبة بن ربيعة

قال ابن إسحاق :

وحدثني يزيد عن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال :

حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيدا قال يوما وهو جالس في نادي قريش ؛ ورسول الله في المسجد وحده :

يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟

(وذلك بعد أن أسلم حمزة ورأى القوم أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون)

فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

* * *

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

يا بن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ؛ وكفرت به من مضى من آبائهم ؛ فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قل يا أبا الوليد ، اسمع .

قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا (جنا) تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

* * *

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد .. ؟

قال : نعم :

قال : فاسمع منى :

قال : أفعل .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » .

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ،

ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة ، فسجد ثم قال قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

* * *

فقام عتبة إلى أصحابه :

فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا ، ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدالكم .

* * *

اجتماع عند الكعبة

قال ابن إسحاق :

ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، ثم أن أشراف قريش من كل قبيلة ، كما حدثنى بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير عن عكرمة مولى ابن عباس عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما قال :

اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وغيرهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ؛

فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم ؛

فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا ، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء ، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ، حتى جلس إليهم ؛

فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك ؛

(ثم عرضوا عليه ما يشاء من مال وسؤدد وملك إن كان به إلى ذلك رغبة) .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم — أو كما قال صلى الله عليه وسلم —

* * *

قالوا :

يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك إنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك صدقناك ، وعرفنا به منزلتك من الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه :

ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ؛ وإن تردوه على أن أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم

قالوا :

فإن لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ؛ سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ؛ وسله فليجعل لك جنانا وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

* * *

فقال لهم رسول الله :

ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ؛ وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً — أو كما قال — فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

* * *

قالوا : فاسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ؛ إن شاء أن يفعله بكم فعل .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به . إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له : الرحمن ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا .

* * *

وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عنهم ؛ وقام معه عبد الله بن أبى أمية — وهو بن عمته — فهو لعاتكة بنت عبد المطلب فقال له : يا محمد ؛ عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل — أو كما قال له — فوالله لاأومن بك أبدا

حتى تتخذ إلى السماء سلما ؛ ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتى معك بأربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك ؛

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه : ولما رأى من مباعدتهم إياه .

* * *

دور أبى جهل فى المؤامرة :

فلما قام عنهم رسول الله ، قال أبو جهل : يا معشر قريش ، إن محمدا قد أبى إلا ماترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله — أو كما قال — فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ؛ فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم : قالوا والله لا نسلمك لشىء أبدا : فامض لما تريد .

* * *

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ؛ وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان

الرسول يصلى بمكة وقبلته جهة الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ؛ فقام رسول الله يصلى . وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ؛ وقامت إليه رجال قريش فقالوا له :

مالك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (عنقه) ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بى أن يأكلنى ؛ .

* * *

قال ابن إسحاق .

فذكر لى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك جبريل عليه السلام ؛ لو دنا لأخذه .

* * *

فلما قال لهم ذلك أبو جهل . قام النضر بن الحارث فقال :

يا معشر قريش ؛ إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ؛ قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم خلقا ؛ وأصدقكم حديثا ؛ وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب . وجاءكم بما جاءكم به . قلتم ساحر : لا والله ماهو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم : وقلتم كاهن . لا والله ماهو بكاهن . لقد رأينا الكهنة وتخالجهم . وسمعنا سجعهم . وقلتم شاعر . لا والله ماهو بشاعر . قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه . وقلتم مجنون . لا والله ماهو بمجنون . لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه . ولا وسوسته . ولا تخليطه . يا معشر قريش . فانظروا فى شأنكم . فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم .

* * *

شيطان من شياطين قريش :

هو النضر بن الحارث . وكان قد قدم الحيرة : وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار . فكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر فيه بالله . وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله . خلفه النضر بن الحارث فى مجلسه إذا قام :. فيقول :

أنا والله يا معشر قريش . أحسن منه حديثا . فهلم إلى : فأنا أحدثكم أحسن من حديثه . ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ثم يقول :

بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟

وروى ابن هشام انه بلغه أن النضر بن الحارث كان يقول : سأنزل مثل ما أنزل الله .

وكان ابن عباس يقول عن النضر هذا . انه نزل فيه ثمان آيات من القرآن : قول الله عز وجل .

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) .

وكل ما ذكر من الأساطير فى القرآن .

اسئلة احبار يهود :

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه ، وبعثوا معه عقبة ابن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة . وقالوا لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته : وأخبراهم بقوله : فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء

فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله . وقالا لهم . إنكم أهل التوراة . وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

* * *

فقالت لهما أحبار يهود .

سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فان أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول . فروا فيه رأيكم .

١ — سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب ؟

٢ — وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟

٣ — وسلوه عن الروح ماهى ؟

فان أخبركم بذلك فاتبعوه . فانه نبي . وإن لم يفعل . فهو رجل متقول . فاصنعوا فى أمره ما بدالكم .

* * *

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط حتى قدما مكة على قريش . فقالا : يا معشر قريش . قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها . فان أخبركم عنها فهو نبي . وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

* * *

فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد . أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب . وعن

وجل كان طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح ماهى ؟

فقال لهم رسول الله . أخبركم بما سألتم عنه غدا .

فانصرفوا عنه . فمكث رسول الله — فيما يذكرون — خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ؛ ولا يأتيه جبريل . حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة ليلة . قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما سألناه عنه . وحتى أحزن رسول الله مكث الوحى عنه . وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الله : الفتية . والرجل الطواف . والروح .

* * *

قال ابن إسحاق .

فذكر لى أن رسول الله قال لجبريل حين جاءه . لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سوءت ظنا .

فقال له جبريل :

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) .

فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده وذكر نبوة رسوله . لما أنكروه عليه من ذلك فقال :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) .

يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم . إنك رسول منى : أى تحقيق لما سألوك عنه من نبوتك .

(وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا) .

أى معتدلا لا اختلاف فيه .

(لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ) .

أى عاجل عقوبته فى الدنيا .

(وَعَذَابًا أَلِيمًا فِى الْآخِرَةِ) .

أى من عند ربك الذى بعثك رسولا .

(وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) .

(أى دار الخلد) :

(لَا يَمُوتُونَ فِيهَا) .

الذين صدقوك بما جئت به مما كذبك به غيرهم وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال .

(وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) .

يعنى قريشاً فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله .

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ) .

الذين أعظموا فراقهم وعيب دينهم .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) .

أى لقولهم : إن الملائكة بنات الله .

(إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) .

يا محمد

(عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) .

أى لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم ، أى لا تفعل

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) .

أى الأرض ، وإن ما عليها لفان وزائل ، وإن المرجع إلى فأجزى كلا بعمله ، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى فيها .

* * *

وبعد ذلك يأتى استقبال السؤال الأول الذى سألوه عنه من شأن الفتية فقال تعالى :

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)

أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك .

ثم قال تعالى :

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) .

ثم قال تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) .

أى بصدق الخبر عنهم .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا) .

أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم :: والشطط هو الغلو ومجاوزة الحق .

(هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ) .

أى بحجة بالغة .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ) .

وتزاور أى تميل وهو من الزور ، وتقرضهم ذات الشمال ، تجاوزهم وتتركهم عن شمالها .

وقال تعالى :

(ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ) .

أى فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ، ممن أمر هؤلاء بمسألتك عنهم فى صدق نبوتك بتحقيق الخبر عنهم .

(مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) .

والوصيد يعنى الباب .

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) .

إلى قوله .

(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) .

أهل السلطان والملك منهم .

(لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . سَيَقُولُونَ) .

يعنى أحبار يهود الذين أمروهم بالمسألة عنهم .

(ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ) .

أى لا علم لهم .

(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِم إلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) .

أى لا تكابرهم .

(وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا) .

فإنهم لا علم لهم بهم .

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ واذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) .

أى ولا تقولن لشىء سألوك عنه كما قلت فى هذا : إنى مخبركم غدا . واستثن مشيئة الله واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهدين ربى لخير مما سألتمونى عنه رشدا ، فإنك لا تدرى ما أنا صانع فى ذلك .

(وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) .

أى سيقولون ذلك .

(قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا) .

أى لم يخف عليه شىء مما سألوك عنه .

* * *

قصة الرجل الطواف

وقال تعالى فيما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر الرجل الطواف .

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا) .

حتى انتهى إلى آخر قصة خبره .

وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتى مالم يؤت أحد غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضا إلا سلط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق .

* * *

قال ابن إسحاق : فحدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علمه .

أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح .

قال ابن هشام : واسمه الإسكندر : وهو الذي بنى الإسكندرية فنسبت إليه .

* * *

من أمر الروح

وقال تعالى فيما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الروح .

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قل الروحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » .

وعن ابن عباس أنه قال :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قالت أحبار يهود : يا محمد ، أرأيت قولك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) إيانا تريد أم قومك؟ قال كلاً ، قالوا فإنك تتلو فيما جاءك :

« إِنَّا قَدْ أُتِينَا التَّوْرَاةَ فِيهَا بَيَانُ كُلِّ شَىْءٍ » .

فقال رسول الله : إنها فى علم الله قليل ، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه .

قال ابن عباس : فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عزيزٌ حَكِيمٌ) .

أى أن التوراة فى هذا من علم الله قليل .

* * *

طلب تسيير الجبال

وأنزل الله تعالى فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض وبعث من مضى من آبائهم من الموتى .

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) .

أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

* * *

طلب الجنات والقصور

وأنزل عليهم فى قولهم : أن تجعل لنفسه جنانا وقصورا وكنوزا ويبعث معه ملكا يصدقه بما يقول ، ويرد عنه .

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ) .

أى خيراً من أن تمشى فى الأسواق وتلتمس المعاش .

(جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا) .

وأنزل عليه فى ذلك من قولهم .

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا) .

أى جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفوا لفعلت .

* * *

طلب تفجير الينابيع

وأنزل الله على نبيه فيما قال عبد الله بن أبى أمية .

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا)

واليَنبوع ما نبع من الماء من الأرض وغيرها ، والكسف : القطع من العذاب والقبيل يكون مقابلة أو معاينة وهو كقوله تعالى (أو يأتيهم العذاب قبلا) أى عياناً .

* * *

مازعموه عن رجل باليمامة

وأنزل تعالى على نبيه فى قولهم : إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن ، ولن نؤمن به أبدا .

(كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) .

* * *

فى شأن أبى جهل

وأنزل عليه فيما قال أبو جهل بن هشام . وما هم به .

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) .

* * *

قال ابن اسحاق :

وأنزل الله تعالى فيما عرضوا عليه من أموالهم :

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

* * *

فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوا من الحق . وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوا عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين أتباعه وتصديقه ، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانا ، ولجوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : لاتسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون ، أى اجعلوه لغواً وباطلا ، واتخذوه هزواً لعلكم تغلبونه بذلك ، فانكم إن ناظرتموه أو خاصمتوه يوماً غلبكم .

* * *

فقال أبوجهل يوماً وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق : يامعشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله :

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) .

إلى آخر القصة :

فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا إذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا ، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى ، استرق السمع دونهم خوفاً منهم فان رأى أنهم عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذى قومه فلم يستمع .

وإن خفض رسول الله صوته ، فظن الذى يستمع أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته وسمع هو شيئاً دونهم ، أصاخ له يستمع منه .

* * *

قال ابن اسحاق :

ومن أجل هؤلاء النفر نزل قوله تعالى :

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً

* * *

عبد الله بن مسعود

اول قارىء للقرآن جهرا :

قال ابن اسحاق :

كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فقد اجتمع يوماً أصحاب رسول الله فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .

قال : دعونى فإن الله سيمنعنى .

فلما كان الغد أتى عبد الله بن مسعود المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، ثم قام وقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) رافعاً بها صوته (الرحمن علم القرآن) ثم استمر يقرأ .

فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ . . ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ماجاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ من سورة الرحمن ماشاء أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه .

فقال له أصحابه ، هذا الذى خشينا عليك .

فقال : ماكان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا .

فقالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون .

* * *

قريش تحارب القرآن

قال ابن اسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض ، لاتعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض :

لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود .

فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

* * *

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت عن محمد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك .

ثم خرج الأخنس من عنده ، حتى أتى أبا جهل ، فدخل بيته فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت عن محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف وأطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه .

قال ابن اسحاق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا عليهم (أى قوم قريش) القرآن ، ودعاهم إلى الله قالوا يهزءون به :

قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه : لانفقه ما تقول : وفى آذاننا وقر . لانسمع ما تقول . ومن بيننا وبينك حجاب . قد حال بيننا وبينك . فاعمل بما أنت عليه . إننا عاملون بما نحن عليه . فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله :

(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورا) .

أى كيف يفهمون توحيد ربك إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرا وبينك وبينهم حجابا بزعمهم ..

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إذ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) .

أى ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثك به إليهم .

(أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)

أى أخطئوا المثل الذى ضربوه لك . فلا يصيبون به هدى ولا يعتدل فيه قول .

(وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدا) .

أى جئت تخبرنا أنا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظاما ورفاتا . وذلك مالا يكون

(قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) .

أى الذى خلقكم مما تعرفون ، فليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك عليه .

وفى تفسير قوله تعالى أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم قال ابن عباس إنه الموت .

* * *

المسلمون بين الفتنة والعدوان

قال ابن اسحاق :

ثم إنهم غدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبه ، ومنهم من يتجلد ، ويعصمه الله منهم .

* * *

تعذيب بلال بن رباح

وكان بلال ، مولى أبى بكر رضى الله عنهما ، صادق الإسلام وهو بلال بن رباح واسم أمه حمامة ، وكان طاهر القلب .

وكان أمية بن خلف بن وهب يخرجه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة . ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له :

لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى.

فيقول بلال وهو فى ذلك البلاء :

أحد . . أحد .

* * *

وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك ، وهو يقول : أحد . . أحد

فيقول ورقة : أحد أحد والله يا بلال .

ثم يقبل على أمية بن خلف ، ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول :

أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذن من قبره مزارا . .

ابو بكر وبلال :

حتى مر أبوبكر الصديق (بن أبى قحافة) رضى الله عنه يوماً ، وهم يصنعون ذلك ببلال ، وكانت دار أبى بكر فى بنى جمح ، فقال لأمية بن خلف :

ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى متى !

قال : أنت الذى أفسدته فانقذه مما ترى .

فقال أبوبكر : عندى غلام أسود على دينك ، وهو أجلد منه وأقوى أعطيكه به .

قال : قد قبلت .

فقال أبو بكر : هو لك . فأعطاه غلامه ثم أخذ بلالا وأعتقه .

* * *

من أعتقهم أبو بكر :

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم .

عامر بن فهيرة ، وقد شهد بدراً وأحدا ، وقتل يوم بئر معونة شهيدا ، وأم عبيس ، وزنيره ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش ، ماأذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ماتضر اللات والعزى ، وما تنفعان ، فرد الله بصرها .

وأعتق النهدية وبنتها ، وكانت لامرأة من بنى عبد الدار ، فمر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، وهي تقول : والله لاأعتقكما أبدا . فقال أبوبكر رضى الله عنه : حللى من يمينك يا أم فلان ، فقالت : حلال أنت ، أفسدتهما فأعتقهما ، قال : فبكم هما ؟ قالت بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما ، وهما حرتان ، أرجعا إليها طحينها قالتا : أونفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟

قال : وذلك إن شئتما .

* * *

ومر أبو بكر بجارية بني مؤمل ، حي من بني عدي بن كعب ؛ وكانت مسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك : إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك .

فابتاعها أبو بكر فاعتقها .

* * *

قال ابن إسحاق :

وحدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق عن بعض أهله قال :

قال أبو قحافة لأبي بكر : يا بني ، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك ؟

فقال أبو بكر : يا أبت إني إنما أريد ما أراد الله عز وجل .

قيل فنزلت فيه هذه الآيات :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) .

إلى قوله :

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى) .

* * *

تعذيب عمار بن ياسر

قال ابن اسحاق :

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ؛ فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول — فيما بلغني — :

صبراً آل ياسر موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبى إلا الإسلام .

اسلوب ابى جهل فى التعذيب :

وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى رجال قريش بالمسلمين ، فاذا سمع بالرجل قد أسلم ، وله شرف ومنعة ، أنبه وأخزاه وقال : تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ، ولنغلبن رأيك ، ولنضعن شرفك ؛ وإن كان تاجراً ، قال : والله لنكسدن تجارتك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به .

* * *

عن سعيد بن جبير أنه قال : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟

قال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به ، حتى

يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى ليقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول نعم .

وحتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له : أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . افتداء منهم مما يبلغون من جهده .

* * *

الهجرة الأولى الى الحبشة

اول هجرة فى الاسلام :

قال ابن إسحاق :

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى الحبشة فان بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم .

فكانت أول هجرة فى الإسلام .

وكان جميع من لحق بأرض الحبشة ، وهاجر إليها من المسلمين ، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا .

ويشك إن كان عمار بن ياسر فيهم .

* * *

وكان مما قيل من الشعر فى الحبشة ، أن عبد الله بن الحارث بن قيس ، حين أمنوا بأرض الحبشة ، وحمدوا جوار النجاشى ، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً ، وقد أحسن النجاشى جوارهم حين نزلوا به قال :

يا راكبا بلغن عنى مغلغلة — من كان يرجو بلاغ الله والدين

كل امرىء من عباد الله مضطهد — ببطن مكة مقهور ومفتون

أنا وجدنا بلاد الله واسعة — تنجى من الذل والمخزاة والهون

فلا تقيموا على ذل الحياة وخز — ى فى الممات وعيب غير مأمون

إنا تبعنا رسول الله واطرحوا — قول النبى وعالوا فى الموازين

فاجعل عذابك بالقوم الذين بغوا — وعائذا بك أن يعلوا فيطغونى

* * *

وقال كثير من الشعراء الآخرين شعراً كثيراً فى هذا المعنى .

* * *

قريش تطلب المهاجرين

قال ابن إسحاق :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها .

فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته ثم بعثوهما إليه .

* * *

ولما علم أبو طالب بأمر هذه البعثة التى تريد شراً بالمهاجرين أرسل إلى النجاشي يطلب إليه الدفاع عن المهاجرين وجاء فى كتاب أبى طالب إلى النجاشي قوله يحضه على حسن جوار من هاجر إليه ،

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر	وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وهل نالت أفعال النجاشي جعفراً	وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلم ، أبيت اللعن ، أنك ماجد	كريم فلا يشقى لديك الجانب
تعلم بأن الله زادك بسطة	وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة	ينال الأعادى نفعها والأقارب

* * *

رواية احدى زوجات النبى :

روى عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها قالت :

لما نزلنا من أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشى : أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الجلود ، فجمعوا له منها كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ، ثم قدما إلى النجاشى هداياه ، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم ، فخرجا حتى قدما على النجاشى ، ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار ، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى ، وقالا لكل بطريق منهم ، إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم لبردهم إليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم

إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم ،
فقالوا لها ... نعم .

ثم أنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ؛ ثم كلماه
فقالا له :

أيها الملك : إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا
دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه
نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم
وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم
وعاتبوهم فيه ...

قالت أم سلمة :

ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص
مبعوثى قريش من أن يسمع النجاشى كلام المهاجرين .

فقالت بطارقته :

صدقاً أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم
فأسلمهم إليهم فليرداهم إلى بلادهم وقومهم ، فغضب النجاشى ،
ثم قال : لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى ،
واختارونى على من سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى
أمرهم ، فان كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم
وإن كانوا غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى .

حديث النجاشي الى المهاجرين :

قالت أم سلمة :

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا . ثم قال بعضهم لبعض . ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

قالوا : نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا صلى الله عليه وسلم كائناً فى ذلك ما هو كائن .

فلما جاءوا . وقد دعا النجاشى أساقفته . فنشروا مصاحفهم حولهم سألهم فقال لهم :

ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ ...

فتولى الجواب جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما فقال :

أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية . نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق

الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

وذهب يعدد عليه أمور الإسلام إلى أن قال :

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ؛ فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ؛ وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك عن سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

* * *

فقال له النجاشى :

هل معك مما جاء به من الله من شىء ؟

فقال له جعفر : نعم .

فقال النجاشي : فاقرأه على .

قالت أم سلمة فقرأ عليه صدرا من « كهيعص » فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم .

ثم قال لهم النجاشي :

إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون .

* * *

مكيدة مبعوثى قريش :

قالت أم سلمة فى رواية ابن إسحاق :

فلما خرجا من عند النجاشى ، قال عمرو بن العاص والله لآتينه غدا فأحدثه عنهم بما استأصل به خضراءهم .

فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين لا تفعل فإن لهم أرحاماً ، وإن كانوا قد خالفونا .

قال عمرو : والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد .

ثم غدا على النجاشى من الغد فقال له :

أيها الملك ، إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه .

فأرسل إليهم ليسألهم عن ذلك .

فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟

فقال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فضرب النجاشى بيده الأرض فأخذ منها عودا ثم قال :

والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود (أى أن ما قلت عن عيسى ابن مريم لا يختلف عن الحق بمقدار هذا العود) .

ثم قال من سبكم غرم . ما أحب أن لى كنزا من ذهب وأنى آذيت رجلا منكم : ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها : فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه . وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه .

نهاية كيد الكائدين :

فخرجا من عنده مقبوضين مردودا عليهما ما جاءا به .

قالت أم سلمة رضى الله عنها :

وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار : فوالله إنا على ذلك إذ نزل رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه فوالله ما علمنا حزنا قط كان أشد

علينا من حزن حزناه عند ذلك . تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي . فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه .

وسار النجاشي إلى عدوه الذى ينازعه الملك ليحاربه فقال المهاجرون : من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر .

فقال الزبير بن العوام : أنا .

قالوا : أنت ؟ وكان من أحدث القوم سنا .

فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره . ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضر قتالهم .

قالت أم سلمة :

فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن . إذ طلع الزبير وهو يسعى . فلمع بثوبه وهو يقول : ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى . وأهلك الله عدوه . ومكن له فى بلاده .

قالت أم سلمة :

فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها . ورجع النجاشي . وقد أهلك الله عدوه . ومكن له فى بلاده . واستوسق عليه أمر الحبشة . فكنا عنده فى خير منزل . حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة .

فهرس الجزء الأول من كتاب فى ظلال السيرة

الموضـــــوع	الصفحة

الشعب

٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون [illegible]

رقم الايداع ١٩٧٥/٢٦١٦

• نافذة على الوطن العربى

قطر على طريق المستقبل الصناعى والاقتصادى



• سمو الشيخ خليفة بن حمد أمير دولة قطر •

●● تشهد قطر اليوم نهضة شاملة .. ثقافية .. وصناعية .. وعمرانية .. ومن أهم مظاهر التقدم الحضارى فى مجالاته المختلفة هذه الخطوط العريضة ..

• منذ أن قام سمو الشيخ خليفة ابن حمد آل ثانى أمير دولة قطر بحركة التصحيح والبلاد تسير بخطى حثيثة الى الأمام فى جميع ميادين النهضة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

• قامت دولة قطر بدور ايجابى وفعال لتأكيد التضامن العربى بوقفتها الرائدة بجانب دول المواجهة خلال معركة رمضان المجيدة .

• تعتبر دولة قطر من أكثر دول العالم رخاء اذ يزيد متوسط دخل الفرد بها سنويا على ٢٠ ألف ريال أى ألفى جنيه مصرى .

• يوجد فى قطر حوالى ١٢٠٠ مؤسسة صناعية .. وكلها تستهدف بناء المجتمع العصرى .

• يجرى حاليا تنفيذ عدد من المشروعات الصناعية الكبرى (الحديد والصلب . ومشروع البتروكيماويات وتوسيع مصانع الأسمنت . ومصفاة البترول) .

• كما تشهد دولة قطر نهضة حقيقية وشاملة فى الخدمات الاجتماعية والصحية والسياسة التربوية والتعليمية . وتقدم كل هذه الخدمات للمواطن القطرى على مستوى عال من الكفاءة والمسئولية .

• ووراء هذه الانجازات الرائدة فى جميع المجالات والميادين تصميم الحكومة على تحقيق الاكتفاء الذاتى الوطنى والانتعاشة حضارية هائلة لمستقبل باهر لدولة ناشئة نامية تساير التقدم الحضارى فى مجالاته